النشاط الاقتصادي لطائفة اليهود في مدينة الوادي أواخر القرن 19 م على ضوء وثائق المحاكم الشرعية

بقلم
أ. الجباري عثماني
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة الوادي

ملخص

يشكل اليهود أقلية فاعلة في مدينة الوادي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث تجمعوا في حومة واحدة تُعرف بـ "رحبة اليهود"، أقاموا هناك بِيَعا لممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، ولهم "قايد" أو "مُقَدَّم" يأتمرون بأمره ويتولى مصالحهم.

برعوا في التجارة وكانوا رقما فاعلا في إدارة دواليب السوق المحلي، كما ملكوا ثروة مالية هائلة، وكثيرا من الغيطان والعقارات. وقد أفصحت وثائق المحكمة الشرعية بالوادي على أسماء يهودية بارزة في عالم التجارة، سيطرت على تجارة الكتان والكسوة والحبوب والزيوت والتمور. كما احتكر اليهود الحرف الهامة، كحرفة الصياغة وصناعة الحايك، وأدوات صناعتها. وتعاملوا مع جميع فئات المجتمع واستغلوا حاجته لنيل أرباح كبيرة.

Résumé :

Les juifs forment une minorité active dans la ville d' El-oued à la fin du XIXe siècle, Ils ont réunis dans un quartier nommé aujourd'hui "Rahbat lihoud", ils ont mis en place la bas ou ils ont fait leur vie: la vente ,la pratique de leur religion librement, .Ils ont eu le "caïd" ou "Mekaddem" obéissants à son commandement et prendre leurs intérêts.

Brillé dans le domaine de commerce ,les Juifs, un certain nombre ont été actifs dans la gestion des roue du marché local, ils ont possédé d'énormes richesses financières, et beaucoup des champs des palmiers et d'immobiliers. Les

documents du tribinal Légitimité d' El-oued ont déclaré les noms de quelques juifs éminent dans le commerce mondial, saisi sur le commerce des draps et des vêtements, des céréales, l'huile et les dates. Les Juifs aussi ont monopolisé quelques importants artisanats, tel que l'artisanat Hayek, et leur outils. Ils ont agis largement dans la société profitant les besoins des citoyens pour acquérir d' énormes fortunes .

مقدّمة

لقد امتاز اليهود منذ القدم بالنشاط والحيوية، وخاصة في مجال التجارة والمال والحرف الهامة، فنجدهم يتغلغلون في أسواق المجتمع الذي يحلون به، بل وأنهم يحاولون احتكار تجارته بكل الوسائل والحيل التي لا يتورعون عن استخدامها للوصول إلى مآربهم. ويهود مدينة الوادي ليسو بمنأى عن تلك الذهنية التي تطبع اليهودي أينما حل وارتحل، ولذا سنحاول تتبع آثار يهود المدينة من خلال مصادر أصيلة – منها ما ينشر لأول مرة – وثقت معاملاتهم اليومية مع السكان المحليين. ومن هنا فالموضوع يطرح تساؤلا رئيسا وهو: ما هو الدور الذي لعبه تجار وحرفيو اليهود في تفعيل النشاط الاقتصادي بالوادي؟ وسوف نجيب عن هذا الإشكال من خلال النقاط الآتية:

1. نزوح اليهود إلى وادي سوف.
2. الوضع الاجتماعي والديني لليهود بالوادي.
3. دور اليهود في تنشيط الحركة التجارية بالوادي.
4. الحرف والحرفيون اليهود بالوادي.
5. الخاتمة.

1. نزوح اليهود إلى وادي سوف:

ينتمي يهود البلدة إلى الطائفة اليهودية التي تعرف بـ"التوشابيم"[1] أي: اليهود الأهالي، ورغم قلة المعلومات المتوفرة حول الأوطان التي نزح منها هؤلاء، فإنه يمكننا أن نلملم بعض الشذرات الموجودة هنا وهناك، حيث يقول المؤرخ العدواني: الطائفة اليهودية متواجدة بالمنطقة منذ عهود قديمة ترجع إلى الفتح الإسلامي للصحراء[2]، "حيث عيَّن عقبة بن نافع رضي الله عنه حسان بن ثابت على رأس جيش ليفتح المنطقة الممتدة ما بين بسكرة وورقلة بما فيها إقليم سوف، وكان ضمن سرايا المسلمين التي تلقن تعاليم الإسلام

بالمنطقة، البعض من بني عدوان بأرض سوف"[3]، وقد يكون بينهم يهود عرب استوطنوا البلد، وهي المجموعة الأولى التي نزحت إلى الوادي.

وأثناء الهجرة الهلالية الكبيرة من المشرق إلى المغرب في القرن الحادي عشر ميلادي، كان من بين القبائل العربية المهاجرة يهود عرب من بني دريد الهلاليين نزحوا إلى الجنوب التونسي، وبصورة أقل إلى الجزائر[4] بحكم القرب الجغرافي فيكون قد تسلل بعضهم إلى المنطقة، والتحقوا ببني جلدتهم الذين سكنوا الوادي قبل ذلك، وهي المجموعة اليهودية الثانية التي استوطنت الوادي.

أما المجموعة الثالثة التي هاجرت إلى سوف واستقرت به فإن مواطنها الأصلية في الجهة الغربية، وتحديدا من إقليم توات، وهم اليهود الذين فروا من حملة الشيخ "محمد بن عبد الكريم المغيلي"(ت909هـ-1503م) الذي قدم من تلمسان إلى تمنطيط[5] عام 882هـ/1477م، وقد رأى أنها تحت سيطرة اليهود، يتصرفون فيها كما يشاؤون، ملكوا التجارة والمال مستخدمين الرشوة والفساد، لذلك اشتد المغيلي في مطاردتهم ومزقهم في الواحات شرَّ ممزق[6]، حتى استقر بعضهم في ناحية ميزاب، وأصبحوا يعرفون بـ "يهود غرداية" الأكثر محافظة وانعزالا إلى حد اعتبار كل غريب عن حارتهم أجنبيا ولو كان يهوديا، وقد نزحت من هؤلاء عائلات إلى منطقة وادي سوف واستقروا بقمار[7].

ويتضح مما سبق ذكره، بأن هناك ثلاث مجموعات يهودية متعاقبة ولو في أزمنة متباعدة نوعا ما، هاجرت إلى الوادي واستقرت به، وقد سكنوا في حواضر وقرى بالمنطقة منها: الوادي وقمار وتغزوت وكوينين والزقم، ولكنهم اخرجوا منها بسبب خبثهم وتآمرهم، فاستقروا نهائيا بالوادي وقمار[8] حتى يوم رحيلهم قبل الاستقلال.

2. الوضع الاجتماعي والديني لليهود بالوادي:

أصبح اليهود مع مرور الزمن عنصرا منصهرا في المحيط الاجتماعي والثقافي السوفي، يصعب تمييزهم عن غيرهم من أهل البلد، لولا اختلاف الدين والطقوس الروحية، وكانوا لا يختلفون من الناحية الجسمانية وكذا من ناحية المظهر عن المسلمين الحضريين[9]، وقلدوا أهل سوف في لباسهم، فيضعون شاشية في الرأس، ويستعملون القندورة

والبرنوس[10].

وعلى الرغم من اندماج هذه الطائفة بالمجتمع إلا أنها بقيت متمسكة بخصوصيتها الدينية والتنظيمية واللغوية، وكان لهم بِيَع يؤدون فيها شعائرهم الدينية وسط حيِّهم المسمى "حومة اليهود" أو رحبة اليهود. كما كان لهم زعيم يسمى "المقدم" أو "قائد اليهود" له محل تجاري يتربع في وسطه[11] ويستقبل فيه أهل طائفته ويرعى شؤونهم ومصالحهم داخليا وخارجيا. ويُعد مقياس مستوى الثروة من أهم المعايير الواجب توفرها لشغل هذا المنصب الهام، فالمقدمون اليهود كانوا دائما من الأثرياء وذوي النفوذ[12].

ولليهود أيضا جبانة خاصة تعرف "بجبانة اليهود" واقعة إلى الشرق من جبانة أولاد أحمد بالوادي[13]، ولهم كذلك أعياد ومناسبات، منها ما يسمى بـ"عيد الزريبة" الذي يتم فيه تعليق عراجين التمر للاحتفال بقدوم الخريف، و"عيد القليط"، وهو رقاق يابس مسوس وسميك وبه العديد من الثقوب، يأكلونه يوم عيد السبت، ثم يعطونه للعرب بعد تلويثه، إذ أن خداع العربي من أولويات اليهودي. ولا يعمل اليهود يوم السبت فهم يغلقون بيوتهم ولا يطهون الطعام، ويكتفون بأكل القليط. ومن الأعياد أيضا "عيد الماء" حيث يسكب اليهود الماء على أجساد بعضهم البعض بعد شربه واللهو به[14].

وأخبرتنا الوثائق التي بين أيدينا بأن يهود الوادي ورغم قلة عددهم، كانوا يتحدثون بالعبرية واللغة العربية. ففي وثيقة مسجلة في أرشيف المحكمة الشرعية بالوادي كلف الملازم الأول "سشيري"[15] (lieutenant schérer) قاضي المحكمة "محمد بن شريف المصعبي الظهراوي"[16] بتقييد قش الهالك "نسيم بن فرج اليهودي" الذي هو بداره، فوجد من بين مقتنياته، خمسة وعشرون كاغط مكتوبين(كذا) باليهودية، مكتوبا على كل كاغط دفع هذا إلى شلوم، واثني عشر كاغطا مكتوبين بالفرنسية مكتوب على كل كاغط دفع هذا إلى شلوم[17]. وفي عقد بيع مؤرخ في 29 رجب 1319هـ أبناء يهودي يدعى "امبراخ بن الهادف" وهما: شلتوم واشلوم يشهدان بأنهما باعا نخيلا في غوط سيدي اسلم ببلاد تغزوت إلى سي "العيد بن الحاج لخضر" المجاور لهم، وبأن الخط المدون أعلاه – الخط مكتوب بالعبرية – خط أيديهما بقولهما واعترافا منهما[18]، ومترجم في أسفل الصفحة إلى

العربية.

أما عن بنية العائلات اليهودية فإنها لا تختلف عن بنية العائلات المسلمة من حيث عدد الأطفال، كما كانوا يسمون أبناءهم بأسماء عربية كمسعودة، علجية، وحدّة، وإبراهيم وفرَج، والقصير، وخزّانية، بالإضافة إلى أسمائهم العبرية كالسيوة، وشلوم وامبراخ واميشي وحاييم وحابي وشمواييل وبراخ وأمبل وشلتوم وداويد ويعقوب واليشي[19].

وفيما يخص طبيعة العلاقات بين اليهود والسوافة فإن التعايش كان هو السائد، رغم تحفظ أكثر الأهالي المسلمين من التعامل معهم؛ لأنهم يرون بأنهم مرابون ومحتالون، ويعتبرونهم خارجين عن الجماعة[20]. وتتداول الأخبار عن أفعالهم السيئة في سوف وغيرها من المدن الصحراوية الأخرى، فيروي الشيخ المغيلي، عن أحد أخبره، بأن يهودية كانت تعمل كخادمة في بيت مسلم وكانت عند عجنها للخبز تأخذ القمل من رأسها وتقتله بين أظافرها، وتعجن قبل أن تغسل يديها. واليهود أيضا حَرَّمُوا على أنفسهم أكل ذبائح المسلمين وأطعمتهم، والطبخ في قدورهم، والأكل في آنيتهم، وكل ما زعموا أنه ذبحوه للمسلمين فهو جيفة، وكل ما زعموا أنه صرفوه لهم فهو ربا[21]. وهذا ما جعلهم محل ريب وشك لدى عامة الناس.

ورغم هذه النظرة السوداوية للأهالي تجاه اليهود، إلا أنهم يدركون، كونهم أقلية في المجتمع، كانوا أذكياء في التعامل مع السكان وكان همهم السيطرة على التجارة والمال والبحث عن الربح بشتى الوسائل، مما دفعهم إلى إقامة علاقات اجتماعية واقتصادية مع البعض من السكان واستغلال فاقتهم وحاجتهم لما عندهم.

وتشير المصادر في هذا الشأن، بأن من الأهالي من كانوا يتقدمون إلى اليهود الميسورين من أجل شراء سلعة أو نخلة أو عقار، أو من أجل السلف(القرض)، فنجد "حمد بن السايح المصعبي" قد اقترض مبلغا من المال قدره 125 فرنك سلف الله الإحسان من اليهودي "يعقوب بن اميشي" وقد طلب حمد الإنظار(كذا) فأمهله اليهودي ثلاثة أشهر[22]. واقترض سوفي آخر يدعى "محمد بن عون بن فرج العشي" من اليهودي "شلوم بن نسيم" مبلغا قدره 110 ريال سلف الله الإحسان[23]. وعلى غير العادة عند المسلمين، وجدنا يهوديا

يقترض من ابنه مبلغا ماليا على سبيل السلف، فقد ترتب بذمة "نسيم بن فرج" اليهودي من سكان الوادي إلى ابنه "شلوم" 365 فرنك سلف الله الإحسان[24].

وبينت الوثائق أن الخصومات والنزاعات التي كانت تحدث بين اليهود والأهالي كانت معظمها ذا طابع تجاري، تمثلت في عقود الإبراء أو الصلح، ونأخذ كنموذج، الخلاف الذي دار بين سي "أحمد بن تواتي المصعبي العزالي"[25] واليهودي "شلوم بن نسيم" من سكان الوادي، وفيه طلب سي أحمد من شلوم أن يخلصه في مبلغ مالي عن أبيه "نسيم"، فطلب الثاني من الأول استظهار حجته فيما يدعيه، فاستظهر أحمد المذكور وثيقة شرعية مؤرخة في أواسط ذي القعدة 1278هـ نومرو(كذا) 343، مختومة بخاتم القاضي علي بن عبد الله العمودي[26]، وشكل عدليه السيد محمد العزوزي والسيد علي بن بكار، وفي ظهر الرسم ما بقي من المحاسبة بين الطرفين... وطال النزاع بينهما، إلى أن تدخل من أراد الصلح، فاصطلحا وصفته، أن يدفع اليهودي 600 (رطجس[27]) إلى سي أحمد، وحضر سي "مَحمد بن تواتي" شقيق أحمد ووافق على ذلك[28]، وانتهى النزاع بين الطرفين.

3. دور اليهود في تنشيط الحركة التجارية بالوادي:

كان اليهود يشعرون بنوع من الاعتزاز عندما يعترف لهم المسلمون بمكانتهم ودورهم الاقتصاديين، ويقولون "سوق بلا يهود كالقاضي بلا شهود"[29]. هذه القاعدة لم يشذ عنها يهود مدينة الوادي، إذ سجلت الوثائق حضورهم في عدد معتبر من عقود المعاملات(بيع، شراء، دين، سلف..)، ورغم توجس السكان خيفة من التعامل معهم كما أسلفنا، إلا أن بعضهم يلتجئ إليهم لسد حاجة أهل بيته من قمح وزيت، وكتان وكسوة وصوف وسكر وقهوة[30]، وسيولة أحيانا، وغير ذلك، لأن اليهود قد سيطروا على معظم أنواع التجارة، وكانوا من بين الفئات التي تستحوذ على السيولة المالية، فأغلب مشترياتهم – كما بينت الوثائق – يُقدم فيها اليهودي المبلغ المترتب عليه عينا أي في الحال. وفي المقابل كانت الأغلبية الساحقة من السكان الأهالي تفتقد لذلك، فمنهم من يضطر لبيع بعض ممتلكاته من نخيل أو حيوان ليشتري ما يلزمه.

ففي عقدين متتالين وُثِّقا يوم الخميس في التاريخ 12 ربيع الثاني 1302هـ، في الأول

البناي(كذا) Maçon "عبد القادر بن بوعلاق الحمدي" يبيع غنما إلى قبيله "محمد بن عون بن حمد الحمدي" واتفقا أن أجل تسديد المبلغ المترتب على ذمة الأخير إلى انقضاء الشتاء القادم[31]. وفي الثاني، وفي اليوم نفسه بل ربما الجلسة نفسها، عبد القادر البناء المزبور يشتري كسوة من اليهودي "شلوم بن مسعودة" من سكان الوادي بثمن قدره 300 رطجس ولا تبرأ ذمته إلا بالدفع الواجب عليه شرعا، والأجل بينهما إلى انقضاء فصل الشتاء الآتي[32]، وفي هذه الحالة يكون اليهودي قد ضمن تسديد دينه، لأن البناء سيقبض المبلغ من "محمد بن عون" في الشتاء أيضا.

ولم يستثن اليهود أي فئة من عناصر المجتمع[33] في التعامل، بما في ذلك الوصفان، فهذا "عبد الله وصيف مسعود بن محمد" ترتب بذمته مبلغ من المال قدره 312.5 فرنك ثمن كسوة، اشتراها من اليهودي "إبراهيم بن القصير"، والأجل بينهما إلى انقضاء حول كامل[34]. واحتاج الوصيف "مادي عتيق إبراهيم بن محمد المصعبي" إلى الصوف فتقدم إلى اليهودي الأشيب "اميشي بن شلوم" واشترى منه ذلك على سبيل الدين... واتفقا على أجل التسديد[35].

نظرا لكون أغلب المعاملات التجارية في الوادي كانت تتم بطريقة "الدين المنجم" والمحدد بأجل معلوم، لذا، فاليهود كانوا يشترطون على أكثر السكان رهنا ليستوفوا منه دينهم عند حلول الأجل. ومن ذلك، اشترط اليهودي "شلوم بن نسيم" على "عون بن مسعود بن يوسف الحمدي" أن يجعل تحت يده جميع حضه من النخيل الكائن له بغوط أولاد حفصة، بجر الرقيقات (الوادي)، حتى يستوفي منه ثمن الكسوة التي اشتراها عون وقت حلول الأجل[36]. وفي عقد آخر مؤرخ في التاريخ 18 جمادى الثانية 1303هـ المكرمان "محمد بن يوسف بن مستور الحمدي" و"عون بن مستور" القبيل يجعلان تحت رب الدين اليهودي "حييم بن حابي" أربع نخلات من ملكهما الكائن لهما بغوط الواعر (جر الوادي) حتى يستوفي منها ثمن الصوف الذي اشترياه منه عند حلول الأجل، والمقدر بـ 325 فرنك[37]. ولاحظنا أن هذا النوع من المعاملة كان يخص الطبقات الاجتماعية البسيطة.

في حين، إذا تعلق الأمر بأحد الأشخاص ذوي الشأن، فإن التجار اليهود لا يفرضون

أي رهن على المدين، وفق ما أفصحت عليه المصادر، حيث لم يطلب "شلوم بن نسيم" على أحد الشُّرْفة والمدعو "البشير بن عبد الله الشريف" أي رهن مقابل ثمن كتان باعه اليهودي إلى البشير المذكور[38]، أومن قايد الأعشاش المكرم "محمد بن موسى العشي"[39] الذي اشترى من "شلوم بن مسعودة" جميع حضه من النخيل الكائن له وعلى ملكه بسبخة العفَّة (جهة الشط بالوادي) بثمن مبلغه 800 رطجس قبض البائع 200 رطجس نعتا والباقي على كرتين[40] (دفعتين). والتاجر نفسه يبيع كتان لسوفيَيْن من الأعيان، وهما: التاجر سي "العربي بن عون بن محمد الهبلة المصعبي الظهراوي" والقائد سي "عبد الله بن اطليبة المصعبي القرفاني" وأجل الدفع الواجب عليهما شرعا إلى انقضاء حول[41]، دون أن يطلب منهما رهنا.

وقد أكدت الوثائق الشرعية أهمية ثروة النخيل في بناء الاقتصاد المحلي بسوف، فهي الغذاء الرئيس والمورد المالي الفريد لتغطية الحاجات اليومية للسكان، فمن ريع محصولها تُسَدَّد الدُّيون ويُزَوج البَنون وتُزَوج الفُنون. وقد وصل ذكر النخلة بجميع أنواعها في عقود المعاملات والمبادلات إلى نسبة 90٪، إما مُباعة أو مُبْتاعة أو متروكة لوارث أو مَوْقوفة على أحفاد أو موصى بها لِعَقب، أو مرهونة يستوفي منها الدائن حقه عند حلول الأجل[42].

ونظرا لهذه الأهمية، كان لليهود نشاط واضح في بيع وشراء النخيل، فقد ملكوا ثروة كبيرة من النخيل في جر السباخ[43](الشط)، وحرصوا على شراء أغلب النخيل المجاور لهم في الغيطان، فهذا "يعقوب بن امبراخ" يشتري نخيلا يحده جنوبا في غوط علي أوراشد بجر السباخ من السوفي "مبروك بن مريقة العشي" وقبض الأخير الثمن معاينة[44]. وحضر "أحمد بن محمد الساسي المصعبي العزالي" وأشهد أنه باع إلى "شلوم بن نسيم " ثلاث نخلات بغوط الواعر بثمن قدره 293 فرنك وخمسة صوردي[45]، وهذا الأخير يشتري من "مسعود بن مريقة العشي" حضه من النخيل بثمن مرتفع جدا يقدر بـ 4219 فرنك[46]، دفعه المشتري في الحال.

وفي عقود أخرى يهود يبيعون نخيلا بالجر نفسه، فهذا "السيوة بن اميشي" اليهودي يبيع

جميع حضه من النخيل بسبخة بالقاسم بن شتحونة إلى "داسي بن محمد بن علي البهيمي" الساكن بالوادي... بثمن مبلغه 781 فرنك على كرتين، واشترط البائع على المشتري بأن النخيل المذكور أعلاه لا يخرج من يده حتى يسدد المبلغ في الأجل المتفق عليه[47]، تأسيا بقاعدتهم الشهيرة، لا تصدق المسلم ولو عاش معك أربعين سنة.

ولليهود باع في تجارة العقار، فقد سعى اليهود أينما حلوا إلى التوسع وخلق فضاء يهودي خالص، وذلك ما سعى إليه يهود الوادي بالاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الأراضي والمنازل والدكاكين المجاورة لحيهم أو القريبة منه. ففي عقد بيع مؤرخ في 26 شوال 1301هـ يشتري "السيوة بن اميشي" اليهودي منزلا يحده جنوبا، والمجاور غربا لمنزل ولد مسعودة اليهودي، وشمالا لليهودي الآخر حييم، في حومة "الشوفية"، من الأشيب "علي بن مبروك العمري" الساكن بالوادي، بثمن قدره 665 رطجس قبض البائع جميع الثمن بذكره وسلم لليهودي في المبيع[48]. ولم يترك ولد مسعودة السابق الذكر فرصة بيع الأرض المملوكة لسوافة، ثلاثة من أولاد أحمد، وواحد من المصاعبة، والمجاورة لبيته جنوبا، وشمالا من منزل ابن طائفته "اميشي" اشتراها منهم، بثمن قدره 40 فرنك، قبض البائعون جميع الثمن وسلموا له في المبيع[49]. واشترى "شلوم بن نسيم" الذي يُعَد من كبار التجار والملاكين في سوف، من السوفي "محمد بن علي الحمدي" حنوتا في سوق الوادي" ودفع ثلاثمائة واثنين وستين(362) فرنك معاينة، اعترف البائع بقبض الثمن، وبرئت ذمة المشتري[50]. وامتياز توفر السيولة عند اليهود عموما جعلهم كما أسلفنا يستغلون الأهالي، ويسددون ثمن مشترياتهم يدا بيد دون اللجوء إلى الاستدانة.

4. الحرف والحرفيون اليهود بالمدينة:

كان يهود الصحراء على العموم يشتغلون في التجارة والصناعة والحدادة والجزارة، وصناعة الأحذية وصناعة الصفائح، وقد امتهن سكان الوادي من اليهود كل هذه الحرف تقريبا؛ وتخصصوا أكثر في صناعة الحلي الذهبية الفضية والنحاسية، حتى أن، كُتاب المحكمة عند ذكرهم للمنافع المكملة لأصْدق الزيجات في الوادي[51] يقولون "... وخلخال فضة عمل اليهود"[52] أي: من صنع الصاغة اليهود.

وكشفت الوثائق بعض الأسماء اليهودية التي اشتغلت في هذه الحرفة. ففي رسم إشهاد بازدياد مؤرخ في مارس 1890م تقدم مجموعة من الصاغة اليهود ليشهدوا على زميل لهم والمسمى "فرج بن براخ" في عمره ثلاث وعشرون سنة، بأنه ولد وازداد ببلد الوادي، والشهود هم كالآتي: إبراهيم بن شلوم في عمره أربعون سنة، ونسيم بن اميشي في عمره ثمان وثلاثون سنة، وداويد بن إبراهيم في عمره خمسون سنة، وحييم بن حابي في عمره ثمان وثلاثون سنة[53]. وقد كان الصاغة في الوادي يتجمعون في جهة واحدة من السوق.

أما عن كيفية صناعتها، فإنهم يحصلون على الفضة من إذابة النقود القديمة، ثم سكبها في قوالب خاصة، وقد وُجد طابع نحاس(قالب) لصنع الحلي في مَتاع اليهودي الهالك السالف الذكر. وقد اشتهر اليهود ببراعتهم بِغِش الحلي المصنوعة من الذهب، فكانوا يُغلفون الحلي المصنوعة من الفضة بالذهب ويعرضونها على أنها حلي ذهبية. ومن أهم المصنوعات من الحلي في سوف هي: الأساور والخلاخل والخواتم والمدلج، ومقاويس والتيقار والبوخدوج والبوكبير والخرص...

ومن جهة أخرى احتكر اليهود حرفة بعض المصنوعات النسيجية الهامة وتسويقها كصناعة "الحايك"[54]، وهو من ملبوسات المرأة السوفية. وقد عثرنا في الوثائق على عدة عقود لبيع الحايك. ومن ذلك، اشترى "عمار بن أبو هني الحمدي" من "شلوم بن نسيم" حايك بمبلغ قدره خمسون فرنك... والأجل بينهما إلى أكتوبر القادم[55]، أي بعد شهر من كتابة العقد. وفي رسم آخر، اشترى "علي بن بالقاسم بن إبراهيم المصعبي الظهراوي" زوج حايك من التاجر نفسه بـ 166 فرنك وخمسة صوردي[56] والتسديد لأجل معلوم. وامتلكوا أدوات صناعتها، فقد أطلعنا حكم التقييد السابق على وجود ثلاثة وثلاثين زوجا من القرداش، ومسمار قرداش، وإشْفَا[57] (وسيلة تقليدية تستعمل للثقب).

لم يقتصر اليهود على حرفة الصياغة وصناعة الحايك، بل اشتغلوا في الحدادة، والجزارة، وكانوا يزبرون النخيل، ويعلمون أطفالهم منذ الصغر الحرف الهامة، ويدربونهم على فنون التجارة والحيل من أجل الربح. أما نساؤهم فكن يتغلغلن في أوساط الأحياء كبائعات متجولات لترويج المجوهرات والأدوية والتمائم السحرية[58].

5. الخاتمة:

وخلاصة القول، أن الأقلية اليهودية كونت حركة ديناميكية نشطة على مستوى أسواق مدينة الوادي في العقدين الأخيرين من القرن 19م، واختلطت بالسكان ومارست الطقوس الدينية بحرية، وبرز من اليهود تجار كبار، سيطروا على معظم تجارة السلع والبضائع الأساسية، واستغلوا حاجة الأهالي لربح أموال طائلة جعلت منهم أصحاب رؤوس أموال حقيقيين، ملكوا في جر السباخ (الشط) ثروة هائلة من النخيل، كما حرصوا أيضا على شراء العقار؛ من أجل التوسع على عادة اليهود أينما حلوا، وذاع صيتهم في إتقان حرف هامة أصبحت تعرف بأسمائهم في الوادي.

الهوامش:

1- التوشابيم: كلمة عبرية أطلقت على الفئة الأولى من اليهود الذين عاشوا في الجزائر قبل قدوم اليهود المطرودين من الأندلس، وقد لقبوا أيضا بـ" الشَّيكليين " نسبة إلى الشيكلة وهي صفيحة معدنية كانوا يعلقونها بأعناقهم لتميزهم عن غيرهم. أما الفئة الثانية من يهود الجزائر فتدعى "الميغوريشم" وتعني الهارب أو المطارد، وهم يهود الأندلس الذين فروا من بطش الكاثوليك الأسبان، وعرفوا في الجزائر بالكبُّوسيين نسبة إلى الكبوسة الحمراء (قبعة) التي كانوا يضعونها على رؤوسهم، وهناك من يلقبهم بالسفارديين وتعني بالعبرية الاسبانيين. والفئة الثالثة تعرف بـ "يهود القرانا" (يهود النصارى) ويقصد بهم اليهود الذين قدموا من توسكانا، خاصة من مدينة ليفورن، والذين لعبوا دورا كبيرا وخطيرا في أحداث أواخر العهد العثماني بالجزائر. للمزيد ينظر: فوزي سعد الله، يهود الجزائر، ج.1، دار قرطبة، الجزائر، ط.2، 2005، ص ص. 153-160؛ كمال بن صحراوي، الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات، بيت الحكمة العلمة، الجزائر2009، ص ص. 20-37؛ حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى عين مليلة، الجزائر2010، ص ص، 44-49.

2- محمد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996، ص. 79.

3- ينظر: العدواني، المرجع نفسه ص91، وإبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934)، دار هومة، للنشر، الجزائر2005. ص. 157.

4- فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص. 153.

5- وتعني حاجب العين وتبعد عن مدينة أدرار بحوالي 12كم جنوبا. كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص. 48.

6- للمزيد حول حملة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ضد يهود توات، ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج.3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط.7، 1994، ، ص ص.71-74؛ فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص ص. 79-93؛ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص. 48.

7- علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر2001، ص. 173.

8- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

9- عثمان زقب، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ص. 134.

10- علي غنابزية، المرجع السابق، ص. 172.

11- أنور العايب، "رحبة اليهود في حي الأعشاش العريق في قلب مدينة الوادي"، جريدة النهار اليومية، 30 مارس 2009، ص.8.

12- نجوى طوبال، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر(1700-1830) من خلال سجلات المحاكم الشرعية، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر 2008، ص.201.

13- إيزابيل إبرهاردت، عودة العاشق المنفي (كتابات ايزابيل ابرهاردت عن سوف)، ترجمة، عبد القادر ميهي، مطبعة الوليد، الوادي 2006، ص. 68.

14- أنور العايب، المرجع السابق، ص. 8.

15- الملازم الأول سشيري: تولى قيادة الفرقة العسكرية الفرنسية في الفترة (1883-1885) خلفا للملازم "ديبورتي" deporter، ويُعد سشيري أول قائد لمركز الوادي بعد انتقال الفرقة من الدبيلة الى عاصمة الإقليم (الوادي). ينظر ابراهيم مياسي، المرجع السبق، ص. 196؛ عاشوري قمعون، الشيخان(إبراهيم العوامر والهاشمي حسني)، مطبعة مزوار الوادي، الجزائر 2010، ص. 16.

16- القاضي محمد بن الشريف المصعبي الظهراوي: من سكان مدينة الوادي، عين نائبا (باش عدل) للقاضي "أحمد بن دغمان القهاري" سنة 1876م بمحكمة الوادي الشرعية، ثم ترقى إلى منصب قاضي في سنة 1878م بالمحكمة نفسها وبقي في هذه الوظيفة مدة عشر سنوات. ينظر: محمد بن عزوز، تاريخ زاوية سيدي سالم، مخطوط موجود بزاوية سيدي سالم، الوادي، ص. 120؛ عثماني الجباري، مدينة الوادي.. الحياة الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجلات المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن 19م، ماجستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2009، ص38.

17- تقييد مقتنيات يهودي هالك، السجل رقم 04، رسم رقم 512، بتاريخ، 1302هـ-24/11/1884م.

18- عقد البيع المكتوب بالعبرية، مسجل بتاريخ، 1319هـ-02/12/1898م، لدي نسخة منه.

19- عثماني الجباري، المرجع السابق، ص ص. 114-115.

20- علي غنابزية، المرجع السابق، ص. 172.

21- محمد بن عبد الكريم المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تح. رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1968، ص ص. 39-42. نقلا عن: فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص ص. 86-86.

22- السجل رقم 06، عقد رقم 11، بتاريخ، 1305هـ- 07/10/1887م.

23- السجل رقم 04، عقد رقم 25، بتاريخ، 1302هـ- 05/05/1885م.

24- السجل رقم 04، عقد رقم 456، بتاريخ، 1302هـ- 30/10/1884م.

25- أحمد بن تواتي المصعبي العزالي: من أعيان مدينة الوادي، وأحد زعماء عرش المصاعبة، عينته الإدارة الفرنسية، "قايد" على عرش المصاعبة في 25 أوت 1884، وبقي في منصبه إلى أن وافته المنية سنة 1889م. محمد بن عزوز، المرجع السابق، 128.

26- علي بن عبد الله العمودي المصعبي: من سكان الوادي، تولى منصب باش عدل محكمة الوادي الشرعية منذ افتتاحها، ثم ترقى إلى منصب قاضي سنة 1278هـ/1861م، تقلد هذه الوظيفة مدة إحدى عشرة سنة، وله نائبان، الأول "محمد العزوزي بن عطا الله الحمدي" (باش عدل)، و الثاني "علي بن بكار العشي" (عدل). ينظر: محمد بن عزوز، المرجع السابق، 128؛ عثماني الجباري، المرجع السابق، ص. 38.

27- رطجس: وهو اختصار قمنا به للعبارة "ريال طرباقة رواج سوف" وهي قيمة محددة من الفرنكات الفرنسية، حيث:1 رطجس = 1.25 فرنك، كان كتاب محكمة الوادي الشرعية منذ تأسيسها 1854 إلى جانفي 1885م، يدونون ثمن الأشياء ومبالغ الصداق بها. ينظر: عثماني الجباري، المرجع السابق، ص. 115.

28- السجل رقم 04، عقد رقم 46، بتاريخ، 1299هـ- 05/02/1885م.

29- سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص. 168.

30- على ما يبدو أن القهوة كانت هي المشروب المنبه الرائج في وادي سوف أواخر القرن 19م، ولم ينتشر حسو الشاي عند السوافة إلا في القرن 20. بدليل أننا لم نعثر على وثيقة واحدة تشير إلى التعامل بالشاي بيعا أو شراء أو سلفا، ضمن سجلات المحكمة الشرعية.

31- السجل رقم 04، عقد رقم 715، بتاريخ، 1302هـ- 29/01/1885م.

32- السجل رقم 04، عقد رقم 716، بتاريخ، 1302هـ- 05/05/1885م.

33- فئات المجتمع الحضري بالوادي هي: فئة الحكام، فئة رجال الدين، فئة الأثرياء، فئة العمال، فئة اليهود، فئة العبيد(الوصفان). علي غنابزية، المرجع السابق، 113-114.

34- السجل رقم 05، عقد رقم 551، بتاريخ، 1303هـ- 05/02/1886م.

35- السجل رقم 04، عقد رقم 153، بتاريخ، 1299هـ- 20/04/1882م.

36- السجل رقم 05، عقد رقم 656، بتاريخ، 1303هـ- 14/03/1886م.

37- السجل رقم 05، عقد رقم 695، بتاريخ، 1303هـ- 25/03/1886م.

38- السجل رقم 09، عقد رقم 449، بتاريخ، 1308هـ- 22/06/1891م.

39- محمد بن موسى العشي: من أعيان مدينة الوادي، عينته الإدارة الفرنسية "خليفة" على الوادي وقمار والبهيمة والدبيلة، وذلك في 1291هـ الموافق لـ 24/02/1874م، ثم عين "قايد" على عرش الأعشاش في 25/08/1884م، وبقي في منصبه هذا إلى أن وافته المنية يوم الأربعاء 05 صفر 1319هـ الموافق لـ 23/05/1901م، ودفن يوم الخميس بزاوية سيدي سالم. محمد بن عزوز، المرجع السابق، ص ص.127-128؛ عاشوري قمعون، المرجع السابق، ص. 15.

40- السجل رقم 04، عقد رقم 714، بتاريخ، 1302هـ- 26/01/1885م.

41- السجل رقم 05، عقد رقم 669، بتاريخ، 1303هـ- 25/03/1886م.

42- عثماني الجباري، المرجع السابق، ص. 100.

43- السباخ: من السُّبْخَة، وهي الأرض المالحة، فإن كانت كبيرة سُميت بـ "الشط" وإن كانت صغيرة دُعيت "زاغر". أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر 2009، ص. 221.

44- السجل رقم 15، عقد رقم 835، بتاريخ، 1315هـ- 28/07/1897م.

45- السجل رقم 13، عقد رقم 404، بتاريخ، 1315هـ- 06/05/1896م.

46- السجل رقم 12، عقد رقم 808، بتاريخ، 1312هـ- 13/07/1894م.

47- السجل رقم 04، عقد رقم 22، بتاريخ، 1302هـ- 04/05/1885م.

48- السجل رقم 04، عقد رقم 369، بتاريخ، 1301هـ- 18/08/1884م.

49- السجل رقم 04، عقد رقم 688، بتاريخ، 1301هـ- 03/1884م.

50- السجل رقم 14، عقد رقم 68، بتاريخ، 1314هـ- 18/12/1896م

51- للمزيد حول مكونات الصداق (المبلغ المالي والشرط) للزيجات في مدينة الوادي. ينظر: عثماني الجباري، المرجع السابق، ص ص. 47-50.

52- السجل رقم 02، عقد رقم 168، بتاريخ، 1293هـ/1884م.

53- شهادة ازدياد مسجلة في التاريخ 12 رجب 1307هـ الموافق لـ 04/03/1890م.

54- الحايك: الحولي، وهو لباس خارجي تلبسه المرأة السوفية، له ألوان متعددة أشهرها الأسود والأزرق والأحمر، لازالت الكثيرات من كبار السن يلبسنه إلى يومنا هذا.

55- السجل رقم 04، عقد رقم 188، بتاريخ، 1303هـ-01/09/1885م.

56- السجل رقم 04، عقد رقم 62، بتاريخ، 1302هـ-03/06/1885م.

57- تقييد مقتنيات يهودي هالك، السجل رقم 04، رسم رقم 512، بتاريخ، 1302هـ-24/11/1884م.

58- علي غنابزية، المرجع السابق، ص. 173.